التداعيات الديموغرافية للحروب العالمية والباردة والأوبئة

The demographic repercussions of global and cold wars and epidemics

إيلي جرجي الياس

الجامعة اللبنانية (لبنان)، elieelias73@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/03/22 تاريخ القبول: 2023/06/27 تاريخ النشر: 2023/06/30

ملخص:

قد تكون الحربان العالميتان الأولى والثانية وحيدتين... ولا فرصة لاندلاع حرب عالمية ثالثة أبداً، لأنها ستكون حكماً حرباً نووية بالكامل، وستقضي على كوكب الأرض وكافة أشكال الحياة فيه... لكنّ الحروب الباردة مستمرة ومتواصلة، ولتبيان العلاقة الوطيدة بين مجال الحروب ومجال الأوبئة والفيروسات، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الأميركيين والروس والصينيين على حدّ سواء، توقعوا حرباً باردة ثالثة، بعد بدء انحسار جائحة الكورونا كوفيد 19...

ثمّة علاقات معقّدة بين مسارات الحروب العالمية والباردة، يجب دراستها وتحليلها لإدراك مساحة التأثيرات السكانية والتداعيات الديموغرافية!! لكن، من جهة أخرى، فإنّ العلاقات بين مكونات عائلة الفيروسات والأوبئة 1900-2022، أكثر صراحةً ووضوحاً، فيصبح تحديد وتوثيق النتائج السكانية أكثر شمولية ودقّة، واحتمالاً للتنفيذ والتحليل!!

الكلمات المفتاحية: الحرب الباردة، التداعيات الديموغرافية، الأوبئة.

ABSTRACT :

The First and Second World Wars may be lonely... There is no chance for a Third World War to break out at all, because it will be a complete nuclear war, and it will destroy the planet and all forms of life on it... But the cold wars are continuous and continuous, and to demonstrate the close relationship between the field of wars and the field of epidemics And viruses, it must be noted that the Americans, Russians, and Chinese alike expected a third cold war, after the start of the Corona Covid 19 pandemic receding...

There are complex relationships between the paths of global and cold wars, which must be studied and analyzed in order to realize the extent of demographic influences and demographic repercussions!! However, on the other hand, the relationships between the components of the virus family

and the epidemics 1900-2022 are more explicit and clear, so the identification and documentation of population results becomes more comprehensive and accurate, and a possibility for refutation and analysis!!

Keywords: cold war, demographic repercussions, epidemics.

المؤلف المرسل: إيلي جرجي الياس ، الإيميل: elieelias73@hotmail.com

مقدمة.

حربان عالميتان ساختان: الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918)، والحرب العالمية الثانية (1939 - 1945)... وحربان عالميتان باردتان: الحرب الباردة الأولى (1947 - 1991)، والحرب الباردة الثانية (2000 - 2020)... وسلسلة من الأوبئة والفيروسات ضمن عائلة مترابطة بدأت مع الإنفلونزا الإسبانية (1917 - 1921) وهي مستمرة وصولاً إلى الكورونا كوفيد 19 منذ 2019... لكل هذه الحروب والأوبئة تداعيات ديموغرافية عميقة وفاعلة، يجب دراستها وتحليلها بشكلٍ مركزٍ طبعاً... قد تكون الحربان العالميتان الأولى والثانية وحيدتين... ولا فرصة لاندلاع حرب عالمية ثالثة أبداً، لأنها ستكون حكماً حرباً نوويةً بالكامل، وستقتضي على كوكب الأرض وكافة أشكال الحياة فيه... لكنّ الحروب الباردة مستمرة ومتواصلة، ولتبيان العلاقة الوطيدة بين مجال الحروب ومجال الأوبئة والفيروسات، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الأميركيين والروس والصينيين على حدّ سواء، توقعوا حرباً باردةً ثالثة، بعد بدء انحسار جائحة الكورونا كوفيد 19...

ثمّة علاقات معقّدة بين مسارات الحروب العالمية والباردة، يجب دراستها وتحليلها لإدراك مساحة التأثيرات السكانية والتداعيات الديموغرافية!! لكن، من جهة أخرى، فإنّ العلاقات بين مكوّنات عائلة الفيروسات والأوبئة 1900-2022، أكثر صراحةً ووضوحاً، فيصبح تحديد وتوثيق النتائج السكانية أكثر شمولية ودقّة، واحتمالاً للتنفيذ والتحليل!!

تشكّل بدايات القرن العشرين منطلقاً لمجال الحروب العالمية ومن ثمّ الحروب الباردة، كما أساساً لانبثاق عائلة الفيروسات والأوبئة الحديثة!! وهذا ما يعطي المرحلة الزمنية قيد الدراسة 1900-2022، تميّزاً في إطار التاريخ الإنسانيّ الشامل، وخصوصاً في مجاله الحديث والمعاصر!! ناهيك عن أنّ الديموغرافيا علم حديث يُعنى بالمجالات السكانيّة من ولادات ووفيات وزواج وهجرة ونموّ سكانيّ... وهو متفرّع من علم

الإحصاء طبعاً، ولكنه توثق وتألّق خلال هذه الفترة الزمنية النوعية!! ممّا يزيد هذه الدراسة أهميةً بحثيةً وعلميةً...

ولهذه الدراسة البحثية الشاملة والضرورية بطبيعة الحال، بعد جائحة الكورونا كوفيد 19 وتداعياتها السكانية، إشكاليّتها المميزة والصريحة: انطلاقاً من الحروب العالمية المدوّرة والحروب الباردة المترابطة والمتواصلة، ومن مسار انتشار عائلة الأوبئة والفيروسات الحديثة، كيف يمكن قياس وتحديد الحركة الديموغرافية العاتقة عبر العالم، وأبرز صفاتها ومميزاتها وتأثيراتها، خلال المرحلة الزمنية الحديثة والمعاصرة 1900 - 2022؟

التأثيرات السكانية للحرب العالمية الأولى: رؤية شاملة وتقديرات نوعية.

بالرغم من أهمية الحرب العالمية الأولى فلم تُدرس تأثيراتها السكانية وتداعياتها الديموغرافية المباشرة وغير المباشرة بما فيه الكفاية، مقارنةً بالحرب العالمية الثانية!! عدا عن التداخل الديموغرافيّ الحاصل بين حدثين تاريخيّين مفصليّين: الحرب العالمية الأولى 1914 - 1918 والإنفلونزا الإسبانية 1917 - 1921، وانطلاقاً من ذلك ثمة أهمية استثنائية لهذه الدراسة من حيث الرؤية الديموغرافية الشاملة للحرب العالمية الأولى والتقديرات السكانية النوعية لها!!

كما بالنسبة للحرب العالمية الأولى، كذلك بالنسبة للإنفلونزا الإسبانية وللحرب العالمية الثانية لاحقاً، من الصعوبة بمكان - ولكنه التحديّ النوعي والدائم - إدراك حجم تقريبيّ لعدد الوفيات، وتالياً تقدير معدّل الوفاة الحام، بغية تحليل الخلل الناتج من هكذا حرب على الهرم السكانيّ العام... ويصعب كذلك تقدير سائر المعدّلات الديموغرافية الضرورية...

تذهب ويكيبيديا في أحدث إحصاءاتها إلى عدد إجماليّ من الوفيات بسبب الحرب العالمية الأولى، يتراوح بين 15 و22 مليون حالة (من العسكريين والمدنيين)... و"في غياب مصادر موثوق بها من ذلك الزمان، يبدو الحديث عن الحرب العالمية الأولى بالأرقام مهمّة شبه مستحيلة إذ غالباً ما يجد المؤرّخون أنفسهم أمام أرقام تختلف اختلافاً كبيراً بحسب المصادر. وعموماً تظلّ الأرقام عن تلك الفترة تقريبية. حصدت الحرب في صفوف العسكر عشرة ملايين قتيل وعشرين مليون جريح. يُعتقد أنّ العمليات العسكرية في بداية الحرب والهجرات والمجاعة والحرب الأهلية في روسيا والصراعات الإقليمية في فترة ما بعد الحرب حصدت أرواح ما بين 5 و10 ملايين مدني، وفقاً لتقديرات بعض المؤرّخين، وهو رقم يشمل ما بين 1,2 مليون و1,5 مليون أرمني - هذا الرقم محل نزاع- قتلوا في السلطنة العثمانية." (1)، فمن

الواضح إذًا، دقة هذه الدراسة، في تحديد النتائج الأكثر دلالة ومنطقيّة، على ضوء الصعوبات الإحصائيّة والتحدّيات الديموغرافيّة، بالنسبة للنصف الأوّل من القرن العشرين!!

لا بدّ أن روسيا - والاتّحاد السوفياتي تالياً - في طليعة الدول التي حصدت التغييرات الديموغرافيّة، الكثيفة والعميقة، نتيجةً للحربين العالميتين الأولى والثانية!! "في نطاقها وخسائرها البشرية، تجاوزت الحرب الأهلية أرقام الإصابات الروسية في أثناء الحرب العالمية الأولى وثورة شباط. من 16 مليون شخص في الإمبراطورية الروسية وروسيا السوفياتية الذين قدّر علماء السكان أنهم توفوا نتيجة الجروح، أو الجوع، أو الأمراض في أثناء 1914-1922، قضى نصفهم على الأقل (8 ملايين) في الأعوام الثلاثة الأولى من الحرب الأهلية، في حين هرب 2 مليون آخرين من البلاد. أجهزت المجاعة المروّعة بين 1921-1922، نتيجة ثانوية للحرب الأهلية، على نحو 5 ملايين شخص. بالمقارنة، لقي أكثر قليلاً من 2 مليون روسي حتفهم في الحرب العالمية الأولى (1914-1917). ميّزت تلك الإحصاءات الرهيبة روسيا عن الدول الأخرى التي عصفت بها الحرب العالمية الأولى، والمجاعة، والأوبئة، ودام النزاع الأهلي هناك ضعف المدة وكانت تكلفته أكبر كثيراً." (2)، قدّر لموسكو مثلاً أن تصمد، رغم الخسائر السكانيّة الهائلة، في النصف الأوّل من القرن العشرين!!

وكما بالنسبة للحرب العالمية الأولى، وكذلك فيما بعد للحرب العالمية الثانية، سيبدأ تعداد الخسائر السكانيّة بالارتفاع تبعاً، على ضوء تطوّر علم الديموغرافيا، وتقدّم الوسائل البحثيّة والتكنولوجيّة!! وحسب بيار رونوفان، "أوروبا منهكة. وصلت الخسائر في الأرواح البشرية بسبب الحرب إلى حوالي ثمانية ونصف مليون رجل، معظمهم ينتمون تقريباً إلى طبقة السكان العاملة: روسيا وألمانيا وفرنسا خصوصاً - التي فقدت 20% من طبقتها السكانية العاملة - قد كانت الأكثر تضرراً." (3)، وهكذا سترتفع الخسائر السكانيّة الناتجة عن الحرب العالمية الأولى، إلى الضعف تقريباً، بعد مرور أكثر من مئة سنة على نهاية الحرب، من زهاء 10 ملايين من القتلى بعد الحرب مباشرةً، إلى 20 مليوناً ويزيد حسب آخر الإحصاءات!!

ولقد تكبّدت ألمانيا، التي أُلقيت على كاهلها المسؤوليات الجسام خلال الحرب العالمية الأولى، خسائر سكانيّة باهظة، بطبيعة الحال!! وبالعودة إلى رونوفان، "ألمانيا، وعلى الرغم من هزيمتها العسكرية، وفقدان الأراضي والتحركات الشعبية الراضية التي عانت منها، لقد خسرت 1800000 رجل، ووجدت نتيجة الحصار، في حالة من التراجع الاقتصادي... " (4)، واستناداً إلى رونوفان نفسه، خسرت ألمانيا ما يعادل

100*(8500000/1800000) = 21% من عدد قتلى الحرب، فإذا الرقم الوسطي لقتلى تلك الحرب حالياً بعد مزيد من الأبحاث والمراجعات يعادل 20000000، فالرقم الوسطي لضحايا ألمانيا يعادل 4235000، وهذا رقم كبير للغاية!!

وحتى اليوم الأخير من الحرب العالمية الأولى، كان تساقط القتلى غزيراً بالفعل، ماثبت ضراوة وقساوة هذه الحرب الضارية... "في حدود الساعة الحادية عشرة صباحاً من يوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني سنة 1918 شهد العالم رسمياً نهاية الحرب العالمية الأولى، عقب توقيع ما عرف بمهدنة كومبينين ألمانيا من جهة والحلفاء من جهة أخرى في ساعة مبكرة من نفس ذلك اليوم. وفي الأثناء، استمرت المعارك طيلة صباح يوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني سنة 1918 لتخلف أكثر من 11 ألف ضحية بين قتيل وجريح. ويصنف الجندي الأميركي هنري غانترذو الثلاثة والعشرين سنة كآخر جندي قتل خلال الحرب العالمية الأولى، في حدود الساعة العاشرة وتسعة وخمسين دقيقة صباحاً، أي قبل دقيقة واحدة من نهاية الحرب العالمية الأولى." (5)، وهكذا هي عبئة الحروب المطلقة، وعنقها الفاضل، والحرب العالمية الأولى خير مثال: تسيل الدماء بغزارة، حتى في زمن يُمكن فيه حقن هذه الدماء!!

ناهيك عن القتلى والضحايا بسبب استعمال الأسلحة الكيميائية والغازات السامة، في خضم الحرب العالمية الأولى!! "وشهدت هذه الحرب أول استخدام على نطاق واسع للأسلحة الكيميائية الحديثة في ساحات المعركة. والغاز الأسوأ والأكثر فتكاً المعروف بملك غازات المعارك كان غاز الخردل... وبالإجمال تفيد التقديرات بمقتل نحو 90 ألف شخص جراء هجمات بالغاز وإصابة نحو 1,2 مليون، علماً أن الغازات السامة التي أطلقت بواسطة قذائف سقطت أحياناً داخل أراضي القوات التي أطلقتها." (6)، أدوات القتل كثيرة، وفرص الصمود والبقاء على قيد الحياة عجيبة، في خضم أقسى المشاهد الحربية: حرب الخنادق!! حيث الموت أقلّ إيلاًماً من الحياة، في خندق الصمود والمواجهة!!

بينما يصعب تحديد الخسائر البشرية، خلال الحرب العالمية الأولى، بالنسبة للدول الأوروبية، على ضوء كثافة المعارك وحرب الخنادق والنسبة المرتفعة من الجرحى والمفقودين وأصحاب الإعاقات، يُلاحظ أنّ إمكانيات الأميركيين الإحصائية والديموغرافية كانت أفضل من الأوروبيين وقتذاك، ناهيك عن أنّ الأغلبية الساحقة والمطلقة من الضحايا الأميركيين هم من العسكريين!! "ووفقاً لوزارة شؤون قدامى المحاربين فإنّ عدد العسكريين الأميركيين الذي قتلوا خلال الحرب العالمية الأولى يبلغ 116500 عسكري." (7)، لم

تكفِ الحسائر البشريّة الباهظة خلال الحرب العالمية الأولى، كما النسبة العالية للجرحى والمفقودين وأصحاب الإعاقة، وانتشار الدمار الواسع، الإنسانيّة لتعمل وتجتهد على تفادي الحرب العالمية الثانية!!

التداعيات الديموغرافيّة للحرب العالمية الثانية: بين الأرقام والنسب الموثوقة.

أطلقت ألمانيا النازيّة الحرب العالمية الثانية يوم 1 أيلول 1939 عبر غزو بولونيا، وأختها اليابان يوم 2 أيلول 1945 باستسلامها للأميركيّين في حفلٍ مهيب، والغريب أنّ الحرب العالمية الثانية استمرت تقريباً 6 سنوات كاملة، بالتمام والكمال!! وقد تميّز النصف الأوّل من الحرب (1 أيلول 1939 - 1 أيلول 1942) بانتصارات دول المحور: ألمانيا، اليابان، إيطاليا، وحلفائهم، الغالبة بنسبة مطلقة... بينما تميّز النصف الثاني من الحرب (2 أيلول 1942 - 2 أيلول 1945) بانتصارات الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركيّة، وحلفائهم، الغالبة، ونسبة مطلقة أيضاً... والأغرب أنّ الفترة الزمنيّة الواقعة في منتصف المرحلتين، هي في الحقيقة فترة التغيير الاستراتيجيّ والمفصليّ، عبر ثلاث معارك أساسيّة ومتلازمة: ستالينغراد في الاتحاد السوفياتي، العلمين في شمال أفريقيا (مصر)، وغوادلكانال في منطقة الهادئ... لو أراد أحد أن ينسّق هذا السيناريو المثير للعجب والدهشة والغرابة، لما استطاع إلى ذلك سبيلاً...

يقيناً أنّ الحرب العالمية الثانية هي أقسى وأعتى الحروب وأكثرها دماراً وتعداداً للضحايا والمفقودين وذوي الإعاقة والجرحى... "وبينما كان المجموع التقديريّ لضحايا الحرب العالمية الثانية 35 مليوناً تقريباً عند نهاية الحرب، بات اليوم 70 مليوناً تقريباً، وهذا دليل على الجهود الديموغرافية والإحصائية المبذولة والمتواصلة!! ومن الملاحظ، أنّ ثلثي الضحايا تقريباً من الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية... (8)، تحتاج الحرب العالمية الثانية، كما الحرب العالمية الأولى، إلى دراسة ديموغرافيّة شاملة ومعتمّة في آن، وتحليل سكانيّ مركّز!!

تعطي برلين - نيسان 1945 - في الأيام الأخيرة والحاسمة للحرب العالمية الثانية، صورة جليّة وجدديّة وجدليّة عن تأثيرات آلة الحرب في زرع الدمار والحراب والموت، ومقدار التداعيات السكانية الخطيرة من حيث الكمّ الهائل من الوفيات جرّاء تلك الحرب!! "برلين التاريخ والحضارة والعمران والتطور والتقدم، وخصوصاً على يد المهندس الألماني النابغة البارع ألبرت شبير، عشية الحرب العالمية الثانية، غدت، في الأيام الأخيرة للحرب، مدينة الخرائب والدمار الشامل، وأرض الألم والعذاب، وكأنّها امتداد لجهنّم، على الأرض!" (9)، كيف يمكن تحديد حجم الوفيات بدقة، في هكذا حرب عالمية مستعرة وممتدّة وجبّارة؟

- وثمة أمثلة كثيرة على النتائج الديموغرافية الواسعة والتداعيات السكانية الجبارة المترتبة على حدوث الحرب العالمية الثانية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:
- ألمانيا - وقد سُويت برلين وبعض مدنها الكبرى بالأرض - دفعت الأثمان السكانية والعمرائية الباهظة دون حدود!! "المسار الجهنمي الذي بدأ قبل إثني عشرة عاماً أدى إلى مقتل مليوني نسمة والعدد نفسه من المفقودين بين جنود الواهرماخت و500000 ضحية مدنية ألمانية ودمار هائل في كل أرجاء البلاد... " (10)، ألمانيا نموذج نوعي لحجم التغييرات الديموغرافية الهائلة، قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية!!
 - أما اليابان حليفة ألمانيا الرئيسية في إطار المحور خلال الحرب العالمية الثانية، فإلى نسبة وفيات عالية من العسكريين والمدنيين خلال الحرب، كانت على موعد مع كارثتين إنسائيتين في الأيام الأخيرة للحرب العالمية الثانية: القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما (6 آب 1945)، والقنبلة الذرية الثانية على ناكازاكي (9 آب 1945)!! "قَدَّر عدد القتلى إثر استعمال القنبلتين الذريتين الأمريكيتين بين 125 ألفاً و250 ألفاً من القتلى مع حجم هائل من الدمار على كافة المستويات... " (11).
 - دفع الأتحاد السوفييتي الثمن الباهظ الأكبر في الحرب العالمية الثانية، نتيجةً لثقل وجبروت الهجوم الألماني على الأراضي السوفييتية مدعوماً من حلفاء أوروبيين كثر، في مقابل مقاومة سوفييتية شرسة ومتواصلة، حتى النصر الأخير في قلب برلين عاصمة الرايخ الثالث!! "لكن نصر الاتحاد السوفييتي كلف ثمناً باهظاً، حيث مات 26.6 مليون نسمة (13.5% من سكان الاتحاد السوفييتي)، من بينهم 20 مليون رجل، ما سبب حفرة ديموغرافية لمدة 20 - 25 سنة، وذلك إضافة إلى الخسائر المادية التي عانى منها الاتحاد السوفييتي، والتي بلغت 30% من الثروة الوطنية بأكملها. " (12).
 - هذا دون أن تُنسى معاناة الأتحاد السوفييتي الديموغرافية الصريحة، مع الرعب العظيم قبل الحرب العالمية الثانية، ومع المجاعة بعدها مباشرةً 1946 - 1947، فبسبب الجوع أو المرض توفي زهاء 1.5 مليون شخص!! "كُونت الحملتان، العمليتان ضد العناصر المضادة للسوفيات والقوميات، الرعب العظيم، ومثلتا جهداً مركزياً بدأ في صيف 1937 وانتهى في تشرين الثاني

1938. بناءً على أحدث المعلومات المتوافرة، اعتُقل 1.6 مليون شخص تقريباً، وأُعدم 700000 منهم. " (13).

- لخصّ سلوك رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل معاناة بريطانيا الديموغرافية والاقتصادية، رغم بوادر الانتصار في نهاية الحرب العالمية الثانية!! " وهذا ما يمكن تفهّمه، علماً بأنه، منذ الغداة، لن يتخلّف عن الانجراف مع انفجار الفرح الغامر الذي ميّز ال VE-Day - يوم النصر - والإعلان الرسمي عن نهاية المعارك في أوروبا. لقد هتفت له الجماهير بجنون، وحيّاه مجلس العموم بجرارة، وهنأه الملك، لكنه لم يكن لديه ثانية واحدة لتذوق حلّوة النصر بعد ست سنوات من الجهود الحثيثة وغالباً اليائسة. فالمملكة المتحدة تبكي 360000 من قتلها، ومدّمها مدمّرة، وإمبراطوريتها مزعزعة الأركان، ودينها الخارجي يتجاوز ثلاثة مليارات ليرة استرلينية... " (14).

- بالنسبة لفرنسا التي قاست الاحتلال الألمانيّ، لما يزيد عن أربع سنوات، مع ما رافق هذا الاحتلال من ظلم ألمانيّ شديد ومقاومة فرنسيّة قويّة، فقد دفعت الثمن الديموغرافيّ غالياً: يقدر عدد الضحايا الفرنسيّين خلال الحرب العالمية الثانية بزهاء 600000!!

- ورغم دخولها الحرب العالمية الثانية متأخّرة، فقد دفعت الولايات المتّحدة الأميركيّة ثمناً ديموغرافياً كبيراً، لأنّها تحمّلت عبء الحرب على جبهتين واسعتين!! وقُدّرت الخسائر الأميركيّة بحوالي 420000 قتيلاً، معظمهم من العسكريّين بطبيعة الحال!!

- ولقد تكبّدت الصين أيضاً، خسائر سكانيّة باهظة، بالفعل... "تعداد القتلى الذين سقطوا في الحرب وفقاً لتقديرات المؤرّخ الأميركيّ هيدلي بول ويلموت 13 مليوناً". (15). ويمكن أنّ الرقم التقديريّ لضحايا الصين - خلال الحرب العالمية الثانية - يتراوح بين 15000000 قتيل و20000000 قتيل!!

- عشية الحرب العالمية الثانية، انتهت الحرب الأهليّة الإسبانيّة، "لقد خلّف نحو ألف يوم من الحرب ندوباً طويلة الأمد في المجتمع الإسباني. وكان إجمالي عدد القتلى، وفقاً للمؤرخين، نحو 600 ألف قتيل. " (16)، أما خسائر إيطاليا، خلال الحرب العالمية الثانية، فقد قُدّرت بحوالي 500000 نسمة!!

- في الخلاصة، كانت التداعيات الديموغرافيّة للحرب العالمية الثانية، أكثر قوّة وتأثيراً، ممّا حدث خلال الحرب العالمية الأولى!! "من الأعوام الألف التي خطّط الرايخ أن يعمّضها في الحكم، لم يتبقّ

سوى الانقراض والموت والدمار بعد اثني عشر عاماً من ارتقاء أدولف هتلر إلى سدة الحكم. ويزيد مجموع أولئك الذين ماتوا في أثناء الحرب العالمية عن خمسة وخمسين مليون شخص من مدنيين وجنود. وبعد ست سنوات ويوم واحد من هجوم هتلر على بولندا، صممت الأسلحة وتمثلت المهمة الجديدة بإنقاذ الأحياء من بين الأنقاض." (17)، وفي واقع الأمر، فإنّ الدراسة المفصّلة لهذه الأنقاض، والبحث الجادّ عن آثار الجثث التي خلّفتها الحرب العالمية الثانية، سيسمحان بتحديد أفضل لنسبة الوفيات ولمعدّل الوفاة خلال تلك الحرب، وهذه الحرب القاسية والشاقّة تحديداً، بين الحروب، في المرتبة الأولى من حيث عدد الوفيات (المدنيين والعسكريين)...

أمثلة ديموغرافية انطلاقاً من الحروب الباردة.

ثلاث حروب باردة أدركتها البشرية بعد الحرب العالمية الثانية: الأولى (1947 - 1991) وهي الأخطر والأطول، والثانية (2000 - 2020) وهي الحدّ الفاصل بين أجيال الحروب، والثالثة التي انطلقت على هامش نهاية زمن الكورونا كوفيد 19!! بين معسكرين رئيسيين: الشرقيّ من جهة - بقيادة سوفياتية ومن ثمّ روسيّة كما وصينيّة أيضاً - والغربيّ من جهة أخرى - بقيادة الولايات المتّحدة الأميركيّة والدول الغربيّة - وهي عبارة عن حروب على كافة المستويات وخصوصاً الاستخباريّة والأمنيّة والاقتصاديّة بين الدول الكبرى، وتداعياتها عسكريّة على مستوى العالم الثالث، ولهذه الحروب تأثيرات ديموغرافية خطيرة، بطبيعة الحال...

ثمّة متغيرات سكانيّة عديدة، وأمثلة ديموغرافيّة نوعيّة، رافقت الحرب الباردة، ومن ضمنها على سبيل

المثال لا الحصر:

- لتوطيد السيطرة الأميركيّة على أميركا الجنوبيّة، وأنظمتها السياسيّة، في مواجهة الشيوعيّة العالميّة، سمحت الولايات المتّحدة الأميركيّة بتدفق عدد كبير من الأوروبيّين بعد الحرب (المطلوبين، مجرمي الحرب النازيّين والفاشيّين وأعدائهم، المتعاونين، الفارين من الشيوعيّة...)، إلى أميركا الجنوبيّة... أبرزهم الألمان، ووصلت سطوتهم وقوّتهم إلى دعم الأنظمة السياسيّة مباشرةً (الرئيس خوان بيرون في الأرجنتين، الرئيس أوغستو بينوشيه في تشيلي، الرئيس ألفريدو ستروسنر مانيودا في الباراغوي...)، ووصل طموحهم إلى أبعد من ذلك... "ولقد آن الأوان للمهاجرين الألمان الكثر الى أميركا الجنوبية، أن يكون لهم مرشّحهم الخاصّ الى رئاسة إحدى دول أميركا الجنوبية، فالجالية

الألمانية القويّة في بوليفيا كان لها مرشحها الخاصّ، لمنصب رئيس الدولة: الكولونيل هوغو بانزر، ضابط ذات أصول ألمانية، تولّى الرئيس هوغو بانزر سواريز، منصب رئاسة الجمهورية البوليفية، من 22 آب 1971 حتى 21 تموز 1978، ومن 6 آب 1997، حتى 7 آب 2001!"(18)، كذلك بالنسبة للكروات الذين تميّزوا بحضورهم المكثّف في أميركا الجنوبيّة، "وهكذا، سنة 1951، ساعد الرهبان تقريباً حوالي 30000 من الكروات على الهجرة، والثلاثان منهم خارج القارة الأوروبية." (19)، وسيشكّل الحضور الكرواتيّ في أميركا الجنوبيّة علامة صريحة وفارقة!! "وفقاً لأرقام دائرة الهجرة الأرجنتينية وصل حوالي خمسة آلاف كرواتي الى البلد في السنوات التي تلت الحرب..." (20).

- كانت الخسائر السكانيّة في الحرب الفيتناميّة، بمواجهة الأميركيين، في ستينات وسبعينات القرن العشرين، باهظة للغاية!! "خسائر الفيتناميين خلال سنوات الحرب الثمانية: مليوناً قتيل، ثلاثة ملايين جريح، ما يناهز 12 مليون لاجئ. أما الأميركيون فقدت خسائرهم ب: 57 ألف قتيل، 153 ألف جريح و303 جرحى، 587 أسيراً بين مدني وعسكري، وقد تم إطلاق سراحهم." (21). لقد كانت حرب فيتنام، تجلياً صارخاً لضراوة الحرب الباردة الأولى وتدايعاتها الديموغرافيّة.

- عانت أفغانستان من سلسلة من الصراعات الداخلية، امتدّت على مدى حوالي خمسين عاماً، وترافقت مع تدخلين عسكريين للجبارين، وهذا أمر استثنائيّ في التاريخ الحديث والمعاصر: السوفيّاتيّ (25 كانون الأوّل 1979 - 15 شباط 1989)، والأميركيّ (7 تشرين الأوّل 2001 - 31 آب 2021)، وهذا ما أدّى إلى خسائر ديموغرافيّة وسكانيّة متعددة ومكثّفة، والى خللٍ نوعيّ في الهرم السكانيّ الأفغانيّ!! وقد امتدّت معاناة أفغانستان منذ الحرب العالمية الثانية، ثمّ الحربين الباردتين الأولى والثانية، حتّى يومنا الحاضر... وقدّرت خسائر الأفغان بمواجهة السوفيّات بحوالي 150000 ضحيّة، وبمواجهة الأميركيين بأكثر من 200000 ضحيّة... مسيرة من الأزمات المتلاحقة والمتراطة، وحاليّاً، "متوسط العمر المتوقع لكل من الرجال والنساء داخل أفغانستان هو 50.6 للذكور و53.6 للإناث، معدل وفيات الرضع هو 108 لكل 1000 ولادة حية، وهو الأسوأ في العالم، كما أن لديها أحد أعلى معدلات وفيات الأمهات." (22).

- بالرغم من التحدّيات الاقتصادية، والأزمات الماليّة والاجتماعيّة، وصراعاتها التي لا تنتهي مع باكستان - وهما دولتان نوويتان - تحت سقف الحروب الباردة المتلاحقة، تستثمر الهند طاقتها القصوى في إبراز قدراتها الديموغرافيّة وامكانيّاتها السكانيّة!! "من المقرر أن تصبح الهند أكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان، العام المقبل، متجاوزة الصين التي يبلغ عدد سكانها 1.4 مليار نسمة، وفقاً لأرقام الأمم المتحدة. وبحلول تشرين الثاني 2022، سيكون الكوكب موطناً لثمانية مليارات إنسان." (23).
- ولكن في المقابل، فإنّ الصين التي تطمح أن تتصدر العالم اقتصادياً مع انبثاق الحرب الباردة الثانية، تعمل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، على تأمين وتوثيق التوازن الديموغرافيّ المطلوب والضروريّ!! "أعلنت الصين إجراءات جديدة لتشجيع الأسر على إنجاب مزيد من الأطفال مع تسجيل معدل المواليد في البلاد أدنى مستوياته على الإطلاق، في حين يتوقع أن يتقلص عدد السكان بحلول العام 2025 . ورغم أن السلطات وضعت حداً لسياسة الطفل الواحد في العام 2016، ثم سمحت لكل زوجين بإنجاب ما يصل إلى 3 أطفال العام الماضي، استمر معدل المواليد في الانخفاض على مدى السنوات الخمس الماضية. وقد انخفض معدل المواليد في الصين العام الماضي إلى 7.52 مواليد لكل ألف شخص، وهو أدنى مستوى منذ بدأت البلاد تدوين السجلات عام 1949 عند قيام دولة الصين الشيوعية، وفق المكتب الوطني للإحصاءات." (24). تجذ الصين الشعبيّة نفسها أمام تحدّيات اقتصاديّة عبر ضرورة تحقيق إنجازات اقتصاديّة نوعيّة، وسياسيّة-عسكريّة، كما بالنسبة لملف تايوان الشائك، ولكن أيضاً ديموغرافيّة عبر تحفيز الشعب لانجاز التوازن الديموغرافيّ المطلوب، وذلك لتؤكّد زعامتها الجيوستراتيجيّة الدوليّة، مع انطلاقة الحرب الباردة الثالثة...
- وتمتدّ المعاناة الديموغرافية حتى روسيا الاتّحاديّة، رغم سياسة الرئيس فلاديمير بوتين وفريق عمله، النشطة ديموغرافياً... "بموجب مرسوم أصدره الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، ستحصل كل أم روسية تنجب 10 أبناء أو أكثر على مليون روبل مكافأة. وأعاد الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، إحياء جائزة من زمن الحقبة السوفيتية للنساء اللاتي ينجبن 10 أطفال أو أكثر في الوقت الذي تواجه فيه روسيا أزمة ديموغرافية تفاقمت بسبب الحرب في أوكرانيا." (25)، تحاول القيادة الروسيّة

إرساء سياسة سكانية فاعلة ومنتجة، بقصد رفع معدّل الولادة الخامّ بشكل فاعل وسريع، في مقابل الانخفاض الحاصل بالنسبة لمعدّل الوفاية الخامّ وتالياً تحسين هرم الأعمار!!

- ومنذ بداية الألفية الثالثة، تعاني القارة العجوز أوروبا من تداعيات سكانية خطيرة على مستوى انخفاض معدلي الولادة الخامّ والوفائية الخامّ في آن، وزيادة نوعية في الشيخوخة، وتالياً في توقّع الحياة عند الولادة... "كشفت بيانات دائرة الإحصاء الأوروبية "يوروستات" عن انخفاض عدد سكان الاتحاد الأوروبي مرة أخرى في عام 2021، من 447 مليون نسمة في 1 يناير 2021 إلى 446.8 في 1 يناير 2022. ومن اللافت أن التغيير الطبيعي السليبي (عدد الوفيات أكثر من المواليد) يفوق عدد صافي الهجرة الإيجابية للعام الثاني على التوالي." (26)، لعلا أكثر من 8 ملايين نسمة هاجروا من أوكرانيا بعد اندلاع الأزمة الأوكرانية 2022، يساهمون في إنعاش ديموغرافيا القارة العجوز على حساب كارثة ديموغرافية أوكرانية حقيقية!! ولكن، ثمة مفاجأة ديموغرافية صاعقة بالفعل: وصل إلى روسيا، استناداً إلى بيانات الأمم المتحدة الرسمية، أكثر من ثلث هؤلاء المهاجرين اللاجئين!! أمّا المفاجأة الديموغرافية الصاعقة الثانية فهي: أنّ هؤلاء المهاجرين الأوكران اللاجئين إلى روسيا يعبرون عن راحتهم حيث يتواجدون، واستقرارهم السكانيّ المرهليّ، وعن متانة العلاقات الإنسانية بين الشعبين الأوكرانيّ والروسيّ، رغم أجواء الحرب المتواصلة!!

- أمّا بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية، فهي تولي الشؤون الديموغرافية أهمية استراتيجية كبرى، ولو أنّها تسعى إلى إخفاء ذلك عن العالم، وإضفاء نوع من الغموض على خططها السكانية!!" على الرغم من أن أميركا تحصر تركيزها في الإنفاق العسكري وإجمالي الناتج الداخلي، باعتبارها مؤشرين على وضع أميركا في مواجهة الصين وروسيا، تظل الحقيقة أن الصورة الديموغرافية العامة للولايات المتحدة تبدو واعدة للغاية، ما دامت البلاد قادرة على اجتياز الأخطار الديموغرافية التي يحملها المستقبل العالمي. والأهم من ذلك بكثير، أن الهرم السكاني الأميركي شاب نسبياً، ويتميز بالتنامي المستمر، ومستوى جيد من التعليم، ما يعتبر مصدراً ثرياً للإنتاجية الاقتصادية، التي تشكل الأساس الذي تقوم عليه صور النفوذ الدولي الأخرى." (27).

العلاقة بين الديموغرافيا وتطور الأوبئة والفيروسات، من الإنفلونزا الإسبانية إلى الكورونا كوفيد 19،

عائلة من الأوبئة والفيروسات تتمدد في جسد الإنسانيّة المبهك بالتحديات والمخاطر، منذ الإنفلونزا الإسبانيّة على هامش نهاية الحرب العالمية الأولى وصولاً إلى زمن الكورونا كوفيد 19، في المرحلة الممتدة منذ بدايات القرن العشرين حتّى يومنا الحاضر... ولا بدّ أنّ لهذه العائلة الخطيرة، تداعيات ديموغرافيّة خطيرة، تختلف بين وباء (فيروس) وآخر...

أما أخطر عنصر في هذه العائلة، والأكثر فتكاً على المستوى السكّانيّ، وتأثيراً على المستوى الديموغرافيّ، فهو حكماً الإنفلونزا الإسبانيّة (1917 - 1921)، والذي انتشر بشكلٍ خاصّ منذ سنة 1918 على هامش نهاية الحرب العالمية الأولى، في القارة العجوز أوروبا كما على مستوى العالم، فاختلط الحابل بالنابل على المستوى الديموغرافيّ، بسبب حدّة الخسائر استناداً إلى الحدّين الضخمين!! "توصلت دراسة جديدة إلى أن فيروس الإنفلونزا البشرية الموسمي ربما يكون قد انحدَر من سلالة الإنفلونزا الإسبانية عام 1918. وتستند النتائج إلى تحليل العينات التي جمعت في أوروبا خلال جائحة عام 1918، والذي كان أخطر جائحة تنفسية في القرن العشرين وقتلت ما بين 50 و100 مليون شخص." (28)، وفي مختلف الأحوال، ورغم هوامش الخطأ في الإحصاءات السكّانيّة وقتذاك، وتطوّرها لاحقاً، فقد بلغ عدد القتلى نتيجة للإنفلونزا الإسبانيّة ضعف عدد القتلى نتيجة للحرب العالمية الأولى، ويزيد...

وبين الإنفلونزا الإسبانيّة والكورونا كوفيد 19، مجموعة من الأوبئة والفيروسات: الإيبولا، الجمرة الخبيثة، الإيدز، جنون البقر، إنفلونزا الطيور، إنفلونزا الخنازير، سارس، ميرس،... تتفاوت تأثيراتها الديموغرافيّة بطبيعة الحال، ولكن تبقى خطيرة في مختلف الأحوال!! "على مر العصور، أودت الأوبئة والأمراض المزمنة بحياة عدد كبير من الأشخاص وتسببت في أزمات كبيرة استغرقت أوقاتاً طويلة لتجاوزها. ومن أكثر الأمراض فتكاً على مر التاريخ أيضاً، مرض الإيدز، الذي ما زال منتشرًا حتى الآن، وقد تسبب في موت 35 مليون شخص منذ ظهوره في عام 1981. وبين عامي 2009 و2010، ظهرت إنفلونزا الخنازير في الولايات المتحدة والمكسيك، وانتقلت منهما إلى جميع دول العالم، وأودت بحياة نحو 200 ألف شخص، فيما قتل إيبولا الذي انتشر في عدد من البلدان الأفريقية وبعض دول العالم بين عامي 2014 و2016 أكثر من 11 ألف شخص. وأودى انتشار فيروس سارس بحياة 774 شخصاً، في حين تسبب ميرس في مقتل 828 شخصاً على الأقل منذ 2012." (29).

أما انتشار الجمرة الخبيثة فدليل على حروب بيولوجيّة محتملة، غالباً ما ترتدي طابع السريّة الشديدة، والاحتمالات الاستخباريّة العديدة، في إطار الحروب الباردة!! فمثلاً هجمات الجمرة الخبيثة عام

2001، عُرفت في الولايات المتحدة الأميركية، لمدة عدة أسابيع بدءاً من 18 أيلول 2001 - بعد أسبوع على هجمات 11 أيلول - عبر إرسال رسائل بريدية تحتوي على مادة الجمره الخبيثة أو الإنتراكس، إلى أماكن نوعيّة وشخصيات عامّة ونافذة، وأدّت إلى خمس وفيات!! ولاحقاً، "ذكرت صحيفة لوس انجليس تايمز أن عالماً أمريكياً كبيراً ساعد في التحقيق في سلسلة من الهجمات القاتلة بميكروبالجرمة الخبيثة عام 2001 - بروس ايفينز - مات منتحراً في حين كانت وزارة العدل على وشك اتهامه بتنفيذ الهجمات. أرسلت الجمره الخبيثة عبر البريد الى مؤسسات اعلامية وسياسيين بعد وقت قصير من الهجمات الارهابية في 11 سبتمبر ايلول 2001 . وقتلت هجمات الجمره الخبيثة خمسة أشخاص وادت الى مرض 17 آخرين واصابت جهاز البريد على مستوى البلاد بالشلل..."(30).

تنسب الإنفلونزا الإسبانية إلى إسبانيا حيث كان بالإمكان - ضمن حدود معيّنة بطبيعة الحال - ملاحظتها ومتابعتها وتحليل انتشارها، لأنّ إسبانيا كانت خارج الحرب العالمية الأولى... بينما بدأ انتشار الكورونا كوفيد 19، انطلاقاً من الصين، حيث ذهب الرئيس الأمريكيّ وقتذاك دونالد ترامب إلى تسميتها بكلّ صراحة ب: الكورونا الصينية... أما بالنسبة للإحصائيات المتعلقة ب الكورونا كوفيد 19، فهي على الشكل الآتي: "" (31).

بينما بالنسبة للإحصائيات المتعلقة بالإنفلونزا الإسبانية، "في كتابها جائحة عام 1918: قصة الإنفلونزا الأشد فتكاً في التاريخ (منشورات ما بكل أومارا . 2018)، تأخذنا كاتارين أرنولد إلى عام 1918، حين غزا فيروس تنفسيّ العالم، ففضى على 100 مليون شخص! لقد فنيت عائلات بأكملها في منازلها، ومات الأطفال جوعاً لأن أهلهم المصابين كانوا عاجزين عن الحركة، بل إنّ بعضهم قتل أطفاله خوفاً عليهم من الجوع؛ واستحالت العواصم مدن أشباح بكل معنى الكلمة! يورد الكتاب أنّه في عام 1918، غزا فيروس تنفسي جديد سكان العالم، وقضى ما بين 50 مليون و100 مليون روح بشرية، أي ما يعادل 220 مليوناً و430 مليون شخص وفق عدد سكان العالم اليوم."(32)، في إطار مقارنة رقميّة دقيقة بين الإنفلونزا الإسبانية والكورونا كوفيد 19، يمكن كذلك تعميمها على سائر عناصر عائلة الفيروسات والأوبئة الخطيرة، يتبيّن وبشكلٍ ثابت وقاطع أنّ الإنفلونزا الإسبانية هي الأخطر والأكثر تأثيراً ديموغرافياً وسكانيّاً، على هامش عائلة الأوبئة والفيروسات 1914 - 2022...

إلا أنّ ذلك لا يمنع من الإعلان والتأكيد أنّ تأثيرات الكورونا كوفيد 19 الديموغرافيّة خطيرة، وإن تكن محدّدة!! لقد حدّت القدرات الماليّة والاقتصاديّة والصحيّة للدول والمجتمعات والأفراد من توسّع آثار

الكورونا السكّانية ، ولكنها ظلّت حاضرة وعميقة... وفي واقع الأمر إنّ "نظرة مالتوس إلى فاعليّة الأوبئة في السيطرة على عدد السكّان نظرة واقعيّة وفعليّة. فايروس الكورونا المستجدّ ليس فتاكًا كما تُصوِّره وسائلُ الإعلام، إلّا أنّ خطره الأساس يكمن في سرعة انتشاره. تنبّهت الصينُ إلى خطورة الوباء، وتمكّنت اليوم من السيطرة عليه. إلّا أنّ عدداً من الدول لم تأخذ التهديدَ على محمل الجِدِّ. وما يدلّ على التفاوت في جدّيّة التعامل مع الوباء هو السرعةُ التي تضاعفتُ فيها أعدادُ المصابين: ذلك أنّ عددَ الإصابات المؤكّدة احتاج إلى 33 يوماً ليتضاعف في الصين، في حين تضاعفت الإصابات في 5 أيّام فقط في إيطاليا ولبنان وماليزيا، أو 3 أيّام في البرازيل وفرنسا وبلجيكا." (33).

لقد تميّزت جائحة الكورونا كوفيد 19 أنّها أكثر من تعرّضت للدراسة والتحليل والتفنيد على المستويات الإحصائيّة والديموغرافيّة فالكورونا كوفيد 19 "يصيب الجميع من دون استثناء، ومن مختلف الأعمار. إلّا أنّ نسب الإصابة تختلف وفقاً لعاملَي العمر والجنس. فالذكور أكثرُ إصابةً به، والأعمارُ المتدنيّة أقلُّ إصابةً به. غير أنّ الأهمّ، هو أنّ الفئات الأكبر سنّاً هم الأكثر تأثراً به." (34)، ورغم ذلك تميل بعض الأبحاث العلميّة إلى عدم تثبيت الأرقام الخاصّة بالوقيّات!! "كشفت دراسة نشرتها الجمعية مجلة ذي لانسييت العلمية الطبيّة البريطانيّة بأن العدد الحقيقي للوفيات المرتبطة بفيروس كورونا يفوق بثلاث أضعاف الأرقام الرسميّة، مشيرة إلى أن الوباء أودى بحياة أكثر من 18 مليون شخص بالعالم في الفترة ما بين بداية 2020 ونهاية 2021. في المقابل، تتحدث الأرقام الرسميّة عن 5,94 ملايين وفاة في العالم بين الأول من كانون الثاني 2020 و31 كانون الأول 2021." (35)، واستناداً إلى ذلك، بعد مئة عام على الإنفلونزا الإسبانيّة ويزيد، والكمّ الهائل من التطوّر العلميّ في كافة المجالات، ليس من المنطقيّ تأطير أرقام الوقيّات ونسبها المثويّة، بين حدّين، بل من المستحبّ تحديدها وتأكيدها...

أهميّة علم الديموغرافيا في التاريخ الحديث والمعاصر!!

الإحصاء علم النسبيّة والرصد والتوقّع والتقدير وتحويل الأرقام إلى نسب معويّة بغية دراستها وتحليلها، علم حديث عُرف منذ بدايات القرن التاسع عشر... أمّا الديموغرافيا: الإحصاء السكّانيّ الهادف والمركّز فهي ابنة الإحصاء، وقد سطعت شمسها وانتشرت منذ بدايات القرن العشرين، وخصوصاً بعد الحرب العالميّة الثانية... للإحصاء، والديموغرافيا حضور مهمّ وساطع في التاريخ الحديث والمعاصر، وقد توثّقت العلاقة بينهما تبعاً!!

علماء الإحصاء والديموغرافيا في طليعة العلوم المساعدة للتاريخ!! "علم الإحصاء علم حديث وأنيق، شديد الأهمية، وسريع التطور، وفائق القدرة، يسمح لنا بالكثير من الامكانيات من متغيرات ورسوم بيانية وآليات مبسطة ومعقدة تساعد في عرض المعلومات، وتحليلها بشكل واسع ومركّز، وتساهم في الاستنتاج المنطقي والمعتمّق، وأبرز تجليات علم الإحصاء على الإطلاق: النسبية! فالنسبية هي السبيل الأساسي والرئيسي للتغيير، في سبيل إدراك الحقيقة! فالتفكير بنسبية صريحة، هو العلاج الأفضل للمشاكل على كافة المستويات: السياسية والإجتماعية والثقافية والبيئية والاقتصادية فمثلاً، يسهل معالجة الداتا الرقمية الهائلة والمكتّفة، عبر تحويلها الى نسب مئوية محددة وواضحة، يمكن تحليلها بدقة، واستخراج الاستنتاجات الضرورية والهامة منها!" (36)، وانطلاقاً من ذلك، يبرز الدور المحوري والجوهري للإحصاء والديموغرافيا، كعلمين مساعدين أساسيين لعلم التاريخ!!

وقد اكتسبت الديموغرافيا صفات علم الإحصاء وتوسّعت في تحليل المجال السكانيّ من كافة جوانبه، فباتت علماً مساعداً أساسياً ورئيسياً للعلوم الإنسانيّة، والتاريخ تحديداً! "الديموغرافيا ابنة علم الإحصاء: ورثت منه الكثير وأضافت أهمية بحثية كبيرة على المستوى السكاني!! الديموغرافيا عملية متكاملة لوصف السكان وصفاً حسابياً شاملاً، بالإضافة الى التحليل المركز والاستنتاجات النوعية التي تنبثق عن هكذا عمليات حسابية إن كانت مبسطة أو معقدة، وذلك انطلاقاً من معايير عديدة أبرزها الولادات والوفيات والزواج مع ما يندرج ضمنها من معطيات خصوصاً على مستوى المجتمعات الشرق الأوسطية، بالإضافة طبعاً الى الهجرة، وهي على أنواع: دائمة او مؤقتة، داخلية او خارجية، والنزوح القسري للمجتمعات والسكان. ويمكن التوسع في حساب معدّل الحياة وفي تشكيل الهرم السكاني فلكي يكون المجتمع متوازناً فارتفاع نسبة الولادات يجب أن يقابله حكماً انخفاض في نسبة الوفيات وسوى ذلك، يكمن الخلل السكاني الذي من الممكن أن يضيق أو يتسع، حسب الظروف المجتمعية والحروب على أنواعها والنزاعات الداخلية والمشاكل السياسية والاقتصادية والاضطرابات وسواها!! ومن الممكن لهذه الظروف والحروب اذا طالت، أن تسبّب تغييرات ديموغرافية جذرية على مستويات عدة، ممّا يولد خللاً ديموغرافياً كبيراً وحاداً لا يمكن تعويضه الا بعد مرور الكثير من السنوات." (37)، إذأ بات للإحصاء والديموغرافيا - والعلاقة بينهما وثيقة ونوعيّة وآخذة في التطور - أهميّة بحثية عميقة في ما يتعلّق بالعلوم الإنسانيّة، والتاريخ على وجه الخصوص...

تُعدّ الديموغرافيا بحساب معدّل الوفاة الخامّ ومعدّل الولاديّة الخامّ ومعدّل وفاة الرّضع ومعدّل الزواجيّة الخامّ وتوقّع الحياة عند الولادة ومعدّل الذكورة ومعدّل الخصوبة ومعدّل النموّ ومعدّل الطبيعيّ وكلّ ما يتعلّق بالهجرة وهم الأعمار وسوى ذلك... ولكن فيما يتعلّق بالحربين العالميتين الأولى والثانية، فالتركيز على معدّل الوفيات بشكلٍ خاصّ لرسم تصوّر حول هرم الأعمار المحتمل!! وتتوسّع الديموغرافيا بأجاء علاقات عضويّة، متينة ومتصاعدة وشاملة وهادفة، كما مع علمي الاجتماع والاقتصاد وسواهم، وقد بات للديموغرافيا حضورها المساعد والنوعيّ في علوم كثيرة!! "إنّ الدراسات السكانية متأثرة بمجالات معرفية متعدّدة، معقّدة ومتشابكة. ويطلق على الدراسات التي تشترك فيها الظواهر الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها معاً لفظ دراسات سكانية." (38).

وتساهم الديموغرافيا في تحقيق وتوثيق الحقيقة الاقتصادية، والعكس صحيح أيضاً!! "منذ نشأتها كعلم مستقلّ، اهتمت الديموغرافيا بالربط ما بين السكان والاقتصاد. فمن وجهة نظر الديموغرافيين، يعتبر السكان، إن لناحية العدد، التركيب أو الدينامية، من أبرز المؤثرات في النمو الاقتصادي. أما بالنسبة للتنمية فإن السكان هم الهدف النهائي لتخطيط السياسات التنموية وتنفيذها." (39). وهكذا تساهم الديموغرافيا، ديموغرافيا الحروب العالمية والباردة والأوبئة والفيروسات، ولو على المستوى المتاح عبر حساب أرقام الوفيات ومعدّلات الوفاة التقديرية، في رسم مسارات آتية ومستقبلية للاقتصاد، فالحربان العالميتان مثلاً، كلّ على حدة، أعقبتها أخطار اقتصاديّة خطيرة فانتعاش ماليّ معرّب ونموّ اقتصاديّ مشير!!

وللديموغرافيا علاقة خاصّة وراقية ووثيقة بعلم الاجتماع!! "عالم الاجتماع الأميركي كينجزي دايفس يشير إلى أن عدداً من المجالات البحثية يتطلب معرفة معمقة في علم السكان وعلم الاجتماع في آن واحد، مثل الخصوبة والتغيرات السكانية ومكوّنات قوى العمل حتّى أن دايفس ذهب أبعد من ذلك، فابتكر مصطلحاً جديداً، أو حتى فرعاً علمياً جديداً، حين أدخل عبارة الديموغرافيا الاجتماعية إلى علم الاجتماع الأميركي عام 1963. وما ذلك إلا للدلالة على الارتباط العميق بين العلمين." (40)، وتالياً، فإنّ في دراسة وتحليل ديموغرافيا الأوبئة والفيروسات، وخصوصاً خلال القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، ما يؤكّد جوهرية العلاقة بين علمي الديموغرافيا والاجتماع، ومدى تأثير النتائج الديموغرافية الخطيرة لعائلة الأوبئة والفيروسات المستجدة على المسار الاجتماعيّ!!

لقد بات الترابط بين التبدّلات السكانية وعلمي التاريخ والاجتماع وثيقاً!! وفي هذا السياق، "تأسّست مجلة الحوليات في العام 1929، أي في العام نفسه الذي انفجرت خلاله الأزمة المالية الكبرى

وعمّت أميركا وأوروبا. سياق آخر عين للمجلة توجهاً جديداً في التاريخ: مآسي حرب 1914-1918 ونتائجها: إن ملايين القتلى استدعوا في الأحياء الشعور بمسؤوليتهم. من ذلك كتاب شبنجلر: انحطاط الغرب 1920، وكتابات أخرى عن أزمة الحضارة الأوروبية... " (41)، هذا يبرز القيمة الإنسانية للديموغرافيا في دراسة سبل تطوير وتنظيم المجتمعات الإنسانية وابرار دور الحروب و الأوبئة في خلق وتوسيع مدى الخلل السكانيّ في هرم الأعمار... "علم السكان شهد تطوراً كبيراً مثل كل العلوم، ولكن هل حقق هذا التطور ما يضمن السلام والأمان! وهل انتهى زمن المجاعات والمرض!" (42).

إلا أنّ الحرب العالمية الثانية، هي التي أبرزت الدور النوعي للديموغرافيا في مجال البحث التاريخي!! "يمكن اعتبار الديموغرافيا في نفس الوقت علماً مساعداً أو قائماً بذاته. سلطت الأضواء على هذا العلم منذ الحرب العالمية الثانية، حين اكتشف المؤرخون العلاقة الجدلية القائمة بين الإحصاءات السكانية والكثير من الأحداث التاريخية (كالثورات والحروب وغيرها من الانقلابات والتقلبات)، ولتحقيق هذه الدراسات الديموغرافية في التاريخ، استفاد المؤرخون من اهتمامات علماء الديموغرافيا في زمنهم الحاضر وحاولوا تطبيق ذلك على الوقائع التاريخية السالفة... " (43)، وخلال الحرب الباردة بشكلٍ خاصّ بدأ نجم الديموغرافيا يلمع، في تركيز الأميركيين وحلف شمال الأطلسي من جهة، والسوفييات وحلف وارسو من جهة أخرى على الإمكانات والثغرات السكانية في إحداث انتصارات استخباريّة وسريّة، فبات من الضروريّ توثيق وتنقيح وتدقيق الدراسات السكانية!! ولو أنّ علم السكان اليوم "يعتمد بصورة أساسية على المصادر الرسمية والإحصاءات الدقيقة الصادرة عن الحكومات والمؤسسات والهيئات الرسمية المحلية والدولية." (44)، يمكن تطبيق الآليات الديموغرافية للحصول على نتائج منطقية إلى أبعد حدود ممكنة بالنسبة لحقبات تاريخية دقيقة وسابقة كالحربين العالميتين. "ثم إنه من البديهي أن الوثائق الموجودة لا يمكن أن تستجيب لمتطلبات البحث الديموغرافي، وسيبقى من الضروري القيام بأبحاث خاصة لدراسة هذه الناحية أو تلك من مسائل السكان." (45)، لذلك خصوصاً بالنسبة للتداعيات الديموغرافية للحروب العالمية والباردة والأوبئة والفيروسات، على الجهد الديموغرافي أن يكون جاداً ومتواصلًا، في سبيل تنسيق النتائج وتحسينها وتصويبها...

إنّه زمن الديموغرافيا، وتالياً الديموغرافيا التاريخية التي انبثقت من الديموغرافيا، بحثاً وتنقيحاً وتفنيداً وتحليلاً وتميّزًا!! "الديموغرافيا التاريخية ترتبط كعلم هنا بالتاريخ والديموغرافية ولا يزيد عمرها عن نصف قرن. وهذا العلم نشأ في فرنسا، وقد ارتبط بمحاجس معرفة وحساب الاتجاهات التاريخية للتوالد السكاني في تلك

البلاد، ثم توسّع هذا العلم في إنكلترا ومنها انتشر إلى أصقاع العالم. هذا العلم يدرس بنية السكان أي توزعهم لجهة العمر والجنس والزواج والنشاط المهني. كما يدرس التوزيع الجغرافي للسكان ونسبة الولادات والزواج ونسبة الخصوبة، إنه يركز على المعدلات والنسب المئوية، وخوارج القسمة، واللوائح. " (46)، علاقة تزداد تألقاً مع تقدّم السنين... وكما "التاريخ رصد لحركة الإنسان في الأرض، ودراسة عميقة للفعل الإنساني وما يتركه هذا الفعل من نشوء وتطور الاجتماع البشري بكل تشكيلاته البنوية ومظاهره." (47)، كذلك الديموغرافيا أي وصف السكان وصفاً حسابياً، قائمة على دراسة وتحليل حركات السكان وتقلباتهم، دراسة وصفية رقمية دقيقة، تستند إلى حسابات وإحصاءات وجداول مبسّطة أو موسّعة ورسوم بيانية ومعدّلات وآليات إحصائية وديموغرافية... وخير مثال على أهميّة رقيّ العلاقة بين التاريخ والديموغرافيا، هذه الدراسة!!

توصيات ديموغرافية.

لعلّ وطني لبنان أحوج ما يكون إلى جهدٍ ديموغرافيّ نوعيٍّ خصوصاً أن آخر تعداد سكانيّ رميّي في لبنان تمّ سنة 1932 أي منذ 90 عاماً... ولكن كيف لنا أن نعتبر كوكب الأرض، مع انبلاج فجر الألفية الثالثة، وفي خضمّ عصر المعلوماتية المتقدّمة والتكنولوجيا، بمثابة قرية كوتية واحدة، دون أن نستطيع وضع سياسة ديموغرافية موحّدة وشاملة وفاعلة؟! وعلى ضوء أهميّة علم الديموغرافيا في التاريخ الحديث والمعاصر، وحضوره الساطع في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وسواها، وانطلاقاً من التأثيرات السكانيّة للحرب العالمية الأولى، ومن التداعيات الديموغرافيّة للحرب العالمية الثانية، ومن الأمثلة الديموغرافيّة انطلاقاً من الحروب الباردة، واستناداً إلى العلاقة بين الديموغرافيا وتطوّر الأوبئة والفيروسات، من الإنفلونزا الإسبانية إلى الكورونا كوفيد 19، 1914 - 2022، آن الأوان للإنسانيّة جمعاء، لمنظمة الأمم المتّحدة، والمنظّمات الدوليّة، للأوطان والبلدان والمجتمعات، للأحزاب والجمعيات، بالتعاون الجادّ والحيث، على مستوى مؤتمرٍ دوليٍّ متخصصّ، أو أكثر عند الضرورة، للخروج بخلاصة سياسة ديموغرافيّة علميّة مركّزة ومعتمّقة، لتحديد آليات تطوير المجالات السكانيّة، بدءاً من قدرة كوكب الأرض على استيعاب الكتلة السكانيّة المتزايدة، مروراً بالتناسق بين الولاديّة والوفاتيّة والزواجيّة والهجرة على أنواعها من جهة وتحسين سبل الحياة من جهة أخرى، وصولاً إلى العلاقة المثلى بين النموّ الديموغرافيّ والازدهار الاقتصاديّ!!

الاحالات والمراجع:.

(*) دكتور في التاريخ والديموغرافيا، ماجستير في المعلوماتية، ماجستير في الاحصاء، أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب - الفرع الثاني، وفي الجامعة اللبنانية - معهد العلوم الاجتماعية - الفرع الثاني، وفي الجامعة اللبنانية - معهد العلوم الاجتماعية - الفرع الرابع، وفي الجامعة اللبنانية - كلية إدارة الأعمال - الفرع الثاني، وفي جامعات خاصة، رئيس رابطة خريجي الجامعة اللبنانية - كلية العلوم - الفرع الثاني، عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين، وعضو الرابطة الثقافية مار مارون الدورة، وجمعية تجاوز، وزميل في الجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية، باحث لبناني في العلاقات الدولية والدبلوماسية وقضايا التسلح.

(1) الحرب العالمية الأولى بالأرقام، فرانس 24، 2018/10/31.

(2) ستالين، سيرة ذاتية جديدة لمستبد، أوليغ ف. خلفنيوك، جروس برس ناشرون، الطبعة الاولى، 2017، ص 96، 95.

(3) Pierre Renouvin, La Première Guerre Mondiale, presses universitaires de France, 1^{ère} édition, 1965, p 119.

(4) Pierre Renouvin, La Première Guerre Mondiale, p 121.

(5) طه عبد الناصر رمضان، آخر ضحية.. قتلت قبل دقيقة من نهاية الحرب العالمية الأولى، العربية، 11 تشرين الثاني 2018.

(6) الغاز السام... سلاح مرعب منذ الحرب العالمية الأولى، فرانس 24، 2018/10/29.

(7) وفيات كورونا بالولايات المتحدة تتخطى عدد القتلى الأمريكيين في الحرب العالمية الأولى، يورو نيوز، 2020/6/17.

(8) د. إيلي جرجي الياس، قراءة معمقة وتحليل شامل لكتابي عالمة الاجتماع الأميركية حنة أرندت: أيمان في القدس تفاهة الشر، وأسس التوتاليتارية!!، تحولات مشرقية، مجلة فصلية محكمة، العدد 25، آب 2021، ص 79.

(9) د. إيلي جرجي الياس: أدولف هتلر وإيفا براون من برلين إلى الأرجنتين حب أقوى من الحرب، دار سائر المشرق، بيروت، آذار 2019، ص 43.

(10) فرنسوا كرسودي، هتلر، الطبعة الاولى، 2012، ص 261.

(11) د. إيلي جرجي الياس، الإمبراطورية اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية: الجرأة العسكرية الطاغية والرؤية السياسية الداهية!!، تحولات مشرقية، مجلة فصلية محكمة، العدد 29، تشرين الأول 2022، ص 38.

(12) الاتحاد السوفياتي يتذكر اندلاع الحرب العالمية الثانية على أراضيه قبل 81 عاماً، آر تي، 2022/6/22.

- (13) أوليفغ ف. خلفنيوك، ستالين، سيرة ذاتية جديدة لمستبد، جروس برس ناشرون، الطبعة الأولى، 2017، ص 257.
- (14) فرنسوا كرسودي، ونستون تشرشل، جروس برس ناشرون، الطبعة الأولى، 2017، ص 492.
- (15) كلود كيتيل، كتاب هتلر كفاحي ملابسات النشر وردود الفعل، جروس برس ناشرون، الطبعة الأولى، 2019، طرابلس، ص 191.
- (16) خوليان كازانوف، الحرب الأهلية الإسبانية، ترجمة عمر التل، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2017، ص 252.
- (17) إريك فراتيني، الكيان خمسة قرون من جاسوسية الفاتيكان السرية، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010، ص 335.
- (18) د. إيلي جرجي الياس: الدولة النازية في أميركا الجنوبية مفاجآت هائلة في الأشهر الأخيرة للحرب العالمية الثانية، دار سائر المشرق، بيروت، آذار 2020، ص 136، 137.
- (19) د. إيلي جرجي الياس: الدولة النازية في أميركا الجنوبية مفاجآت هائلة في الأشهر الأخيرة للحرب العالمية الثانية، ص 119.
- (20) د. إيلي جرجي الياس: الدولة النازية في أميركا الجنوبية مفاجآت هائلة في الأشهر الأخيرة للحرب العالمية الثانية، ص 139.
- (21) حرب فيتنام، الجزيرة، 2009/10/1.
- (22) حقائق تاريخية عن تاريخ تكوين أفغانستان والغزوات التي تعرضت لها، كتبت بسنت جميل، اليوم السابع، 3 آب 2022.
- (23) اليوم العالمي للسكان: الأمم المتحدة تقول إن عدد سكان الهند سيتجاوز الصين العام المقبل، ستيفاني هيغرتي مراسلة شؤون السكان، بي بي سي عربي، 11 تموز 2022.
- (24) عمالة شائخة ونمو سكاني متدن.. الصين تشجع الأسر على إنجاب مزيد من الأطفال، الجزيرة، 2022/8/16.
- (25) بمرسوم من بوتين.. مليون روبل لكل أم روسية تنجب 10 أبناء، البيان 42، 18 آب 2022.
- (26) عدد سكان الاتحاد الأوروبي يسجل انخفاضاً للعام الثاني على التوالي، أر تي عربي، 2022/7/12.
- (27) هال براندز، كاتب من خدمة بلومبيرغ، أميركا والهيكلة الديموغرافية، الشرق الأوسط، 7 نيسان 2019.
- (28) دراسة: الإنفلونزا الموسمية قد يكون سلباً مباشراً لفيروس عام 1918 المسبب لجائحة عالمية كارثية، عربي RT، 2022/5/11.

- (29) بالأرقام... أكثر الأوبئة فتكاً على مر التاريخ، الشرق الأوسط، الأربعاء 18 آذار 2020.
- (30) عالم أميركي ينتحر في قضية الجمرة الخبيثة، فرانس 24، 2008/8/2.
- (31) <https://www.worldometers.info/coronavirus/>
- (32) زياد مني، كتاب يستعيد الجائحة التي نكبت العالم في الحرب العالمية الأولى: كان يا ما كان... الإنفلونزا الإسبانية، الأخبار، الخميس 2 نيسان 2020.
- (33) د. شوقي عطية، جائحة الكورونا 2019، مقارنة ديموغرافية، الآداب، 19-3-2020.
- (34) د. شوقي عطية، جائحة الكورونا 2019، مقارنة ديموغرافية.
- (35) أكثر من 18 مليون وفاة مرتبطة بفيروس كورونا في العالم ما بين مطلع 2020 ونهاية 2021، فرانس 24، 2022/3/11.
- (36) د. إيلي جرجي الياس: أدولف هتلر وإيفا براون من برلين إلى الأرجنتين حب أقوى من الحرب، دار سائر المشرق، بيروت، آذار 2019، ص 75.
- (37) د. إيلي جرجي الياس: حادثة علمي الاحصاء والديموغرافيا ودورها في تحديث علم التاريخ، الدراسات الأمنية والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسية، فصلية تصدر عن مجلة الأمن، العدد 70، نيسان - أيار - حزيران 2017، ص 109.
- (38) د. رجاء الغصيني، الديموغرافيا والسوسولوجيا مقارنة منهجية للدراسات السكانية، بيروت، 2021، ص 25.
- (39) د. شوقي عطية، السكان في لبنان: من الواقع السياسي إلى التغير الاجتماعي والاقتصادي، دار نلسن، بيروت، 2014، ص 21.
- (40) د. شوقي عطية، علم السكان في البحث التطبيقي والإحصائي، بيروت، 2017، ص 19.
- (41) وجيه كوثراني، التأريخ ومدارسه في الغرب وعند العرب مدخل إلى علم التاريخ الجزء الأول، الأحوال والأزمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001، ص 205، 206.
- (42) ندا ذبيان، الدراسات السكانية مناهج - فلسفات - تناقضات، دار رسلان، دمشق، 2010، ص 5.
- (43) د. الياس القطار، مدخل إلى علم التاريخ، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، بيروت، 2000، ص 148.
- (44) د. حسان حلاق، مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات، دار النهضة العربية، الطبعة الرابعة، بيروت، 2004، ص 107.
- (45) رولان برسا، الديموغرافيا الإحصائية، ترجمة د. حلا نوفل رزق الله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ص 16.

- (46) د. عصام خليفة، أبحاث في تاريخ شمال لبنان في العهد العثماني، طبعة ثانية، بيروت، 2016، ص 17.
- (47) د. مُحمَّد مراد، المدارس التاريخية الكبرى دراسات نظرية في مناهج البحث وفلسفة التاريخ، مكتبة الفقيه، الطبعة الأولى، بيروت، 1996، ص 10.